ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

النظافة كممارسة حضارية بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني

Cleanliness as Civilization practice in Algiers during the Ottoman period

صدام رزيم، طالب دكتوراه، جامعة جيلالي بونعامة خميس مليانة
s.rezime@univ-dbkm.dz

تاريخ الاستقبال: 2020/02/15 تاريخ القبول: 2020/04/15 تاريخ النشر: 2020/09/30

الملخص باللغة العربية: يعد الجانب الحضاري للمدن الجزائرية عبر مختلف المراحل التاريخية جانبا خصبا ينتظر البحث في مختلف عناصره وجزئياته، التي يجب صياغتها على شكل مواضيع محددة لدراستها، ومن بين المواضيع الحضارية نذكر نظافة المدينة الجزائرية، والتي كانت إحدى الممارسات الحضارية التي عرفها الجزائريون خلال العهد العثماني، لذلك ارتأينا أن نتطرق في مقالنا هذا إلى نظافة مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية، خاصة وأن هذا الموضوع لقي تشويها من طرف بعض الكتاب الغربيين الذين أنكروا نظافة المدن الجزائرية، فاخترنا مدينة الجزائر كنموذج لنبرز اهتمام الجزائريين بالنظافة من خلال التعرف على الجهات الإدارية المكلفة بنظافة المدينة ولنقف عند الطرق والوسائل والكيفية المستعملة لتنظيف الشوارع ومختلف المنشات العمرانية كالمنازل والحمامات...الخ.

الكلمات المفتاحية: مصلحة النظافة؛ شوارع المدينة؛ الجزائر العثمانية؛ قنوات الصرف الصحي؛ إدارة شبكة المياه؛ حفر الآبار والخزانات.

Abstract:

The civilization aspect of the Algerian cities through various historical times is a fertile aspect that awaits research in its difrent elements. Among the civilization themes are the cleanliness of the Algerian city, which was one of the civilized practices known to the Algerians during the Ottoman period. In this article, we refer to the cleanliness of the city of Algiers during the Ottoman period, which was tried to deny its presence in Algeria by some Western writers. We chose Algiers as a model for highlighting Algerian interest in cleanliness by identifying the administrative authorities in charge and the material used and how to clean up the streets and various urban facilities such as homes, bathrooms ... etc.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

Key words: Cleaning services, cleanliness, ,Sewege, Water Network ,Management, Drilling wells, reservoirs.

1. مقدمة: شكلت مدينة الجزائر إحدى أهم الحواضر في المغرب الإسلامي خلال الفترة العثمانية، حيث كانت مركز حكم الجزائر العثمانية منذ سنة 1519م، والتي ظهرت كقوة فاعلة في البحر المتوسط بفضل أسطولها البحري، حيث تحولت إلى ملتقى لمختلف الشرائح السكانية باستقرار الأتراك والأندلسيين وامتزاجهم بالسكان الأصليين إضافة إلى فئات أخرى. ونتج عن هذا التنوع السكاني حركة تجارية وتطور عمراني بحيث ظهرت حوانيت للحرف في الشوارع والطرقات والمنازل وبنيت القصور والمساجد والحمامات، وهذا النسيج الحضاري الذي عرفته المدينة تطلب من السلطة الحاكمة عبر فترات الحكم المتوالية من (بايلربايات وباشاوات وأغوات ودايات) إلى استحداث تنظيمات اجتماعية وحضارية متعددة المصالح لتسييرها وتنظيمها، ومن بين المصالح التي استحدثوها المصلحة الخاصة بنظافة المدينة وهو موضوع مقالنا. بحيث سنسعى للإجابة عن إشكالية هذا الموضوع والتي تتمحور حول وجود إدارة خاصة بالنظافة في مدينة الجزائر، والطرق المستعملة في تنظيف المدينة في الشوارع والبيوت والأماكن العامة كالحمامات والمساجد...الخ.

2. مصلحة النظافة في مدينة الجزائر خلال الحكم العثماني

لقد أولت السلطة الحاكمة موضوع نظافة المدينة في الجزائر اهتماما كبيرا خاصة وأن النظافة لها ارتباط وثيق بالجانب الصحي الذي يعد دافعا قويا للاهتمام بها سواء من طرف الحكام أو من السكان، وعليه فقد أشارت المصادر إلى أن مدينة الجزائر كانت أكثر تنظيما وفعالية مقارنة بمدن أخرى كالقاهرة وحلب، بحيث أنشئت مصلحة خاصة تسهر على نظافة المدينة[1].

بدأ عملها في مدينة الجزائر سنة 1597م يرأسها مسؤول يدعى قائد الزبل ويتم اختياره من عناصر الأوجاق، ينطوي تحت هذه المصلحة مجموعة من العمال كمساعدين له يصل عددهم إلى 30 عاملا، ونظرا لأهمية النظافة يخضع قايد الزبل إلى الداي مباشرة. ويوجد ارتباط كبير بين مصلحة النظافة والإدارة الخاصة بالمياه لأن الماء مصدر النظافة لذلك توجب علينا في هذا المقال الإشارة إلى مصادر تزويد مدينة الجزائر بالمياه.

1.2. الطرق المتبعة في تنظيف شوارع وبنايات المدينة

2.2. نظافة الشوارع:

يقوم عمال النظافة بتنظيف شوارع المدينة **(الشكل رقم 1)** وفق تنظيم محكم حيث يرتاد العمال في صباح كل يوم عبر هذه الشوارع لجمع القمامات، بعد أن يقوم السكان برمي هذه الأوساخ في أكوام

1 أندري ريمون، المدن العربية لكبرى في العصر العثماني، تر، لطيف فرج، دار الفكر للدراسات، ص 111.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

مخصصة أمام المنازل، وهذه الأكوام مبنية بالجدران على شكل أحواض، وبهذا يتم تفادي الرمي العشوائي للأوساخ.[2]وما كان يساعد على تنظيف هذه الشوارع هو أن معظمها يتميز بالضيق وطرقها معبدة ومفروشة بالحجر وهذا ما يقلل من تراكم الأتربة والأوحال عبر طرقها[3].

كما تفرض هذه الإدارة على السكان التقيد بهذا التنظيم وبشكل صارم بحيث تعاقِب الأُسر التي لا تتقيد بوضع القمامة في أماكنها الخاصة، وتتمثل العقوبة في غرامة مالية أو الضرب بالعصا في حالة عدم تسديد الغرامة المالية[4]. ويمر العمال عبر الشوارع بالحمير والبغال على ظهورها قُفَف لجمع تلك القمامة من الأحواض المخصصة لها لتُنقل خارج المدينة وترمى في مكان يسمى برج الزبلية أو برج القمامة[5]. كما تتمركز بعض النشاطات المضرة بالسكان خارج المدينة بالقرب من برج الزبلية لتفادي تلويث المدينة بمخلفات هذه الصنائع كالروائح وغيرها.

3.2 . نظافة وتطهير المنازل:

يوجد نوع أخر من النظافة يدخل ضمن نظافة المدينة وله علاقة بالمنازل والبنايات العمومية من قصور وحمامات ومساجد وهو نظافة مسالك المجاري الصحية، وقد يشبه ما يعرف اليوم بقنوات الصرف الصحي؛ يدخل ضمن المصلحة الخاصة بالمياه التي كانت مسؤولة عن إنشاء شبكات مياه الشرب ومياه الغسيل، وهذا النوع كان موجودا بمدينة الجزائر بواسطة شبكة من السواقي والقنوات الرباعية الشكل المبنية بخليط من الحجارة الصغيرة والطين[6]، يتراوح ارتفاعها بين 0.40م و 0.50م مغطاة بقطع من الحجر، يصل ارتفاع بعض هذه القنوات أسفل المدينة إلى 1.20م،[7] يضاف إليها بلاطات مسطحة لتسهيل مرور المياه القذرة عبرها بشكل منحدر لتَصُب أخيرا في البحر[8].

كانت هذه السواقي تمر عبر ساحات المنازل وبجانبها، وهذا ما جعلها تدخل كأحد الشروط في عملية البيع والشراء، بحيث يشترط البائع على المشتري احترام ساقية الجيران التي تمر بجانب البيت

2 خليفة حماش، (الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني)، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة منتوري قسنطينة، 2006، ص 491.

3 وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر(1816 – 1824م)، تعريب وتعليق وتقديم، إسماعيل العَربي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص 97.

4 خليفة حماش، المرجع السابق، ص 491.

أندري ريمون، المرجع السابق، ص111. 5

6 وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم، عبد القادر زبادية، الجزائر، دار القصبة للنشر، 2006، ص 61.

7 علي خلاصي، قصبة مدينة الجزائر، ج2، ط1، الجزائر، دار الحضارة، 2007، ص 85.

8 أندري ريمون، المرجع السابق، ص112.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وعدم التعرض لها. وعن المياه التي تمر عبر السواقي فهي مياه الغسيل و المياه المستعملة في الأماكن العامة كالحمامات[9] وهنا تشير بعض الدراسات إلى وجود مجاري باطنية أنشئت لصرف الفضلات حسب انحدار الشعاب لترمى في البحر،[10] وقد يقتصر هذا على المنازل والمرافق العامة القريبة من البحر.

تحدثت المصادر أيضا عن نظافة وجمال منازل الجزائريين من الداخل فيقول الرحالة هابنسترايت: « ... أما منازل المدينة فهي منتظمة وبناؤها جيد....يستخدم الرواق كمكان للتوقف بحيث يخلع الحذاء قبل الدخول إلى المنزل ... أما الغرف فهي مستطيلة تزينها صور أوراق الأشجار وأشكال المنمنمات المحفورة على الجبس، وللمنازل أسطح مهيأة لأن تكون مكانا للاستراحة. وتشاهد في المنازل الزهور والنباتات والأثاث الجميل وطريقة المحافظة عليها تدل على التزام السكان بقواعد النظافة والنظام...»[11].

كما اعتنت الأسر الجزائرية بنظافة المرحاض داخل المنزل بفضل توفر المياه إذ تضع بداخله أوان خاصة للاستعمال، كالطاسيات وهو إناء مستدير قليل العمق[12]، ولقي الحمام هو الأخر اهتماما مميزا فتوفرت فيه كل مستلزمات النظافة المعروفة آنذاك منها: الطاسيات والدلاء لحفظ المياه عند الاستحمام، والسطل وهو أنية خاصة بالحمام يوضع فيه الصابون والمشط.[13] إن كثرة الحمامات في المدينة دليل على اهتمام السكان بالنظافة لأنها ضرورية للصحة ووقاية من الأمراض وقد لقيت إشادة واسعة من طرف الرحالة الذين زاروا الجزائر خلال هذه الفترة[14].

أما المياه القذرة للمراحيض فكان لنظافتها تنظيم خاص، فأغلب السكان وبالأخص البعيدون عن شاطئ البحر يستعملون الحفر أو ما يسمى (بالمطمورة) وتستعمل حتى في الحمامات. تُنظف هذه الحفر

9 خليفة حماش، المرجع السابق، ص 489، 490.

10 عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ المدن الثلاث الجزائر- المدية - مليانة بمناسبة عيدها الألفي، ط1، الجزائر، دار الأمة للنشر، 2007، ، ص 75.

11 ج.او. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ — 1732م)، ترجمة وتقديم وتعليق، ناصر الدين سعيدوني، تونس، دار الغرب الإسلامي، 2007، ص37.

12 أيت سعيد نبيلة، التحف المعدنية العثمانية المحفوظة بالمتحف الوطني للآثار، دراسة أثرية فنية، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر معهد الآثار، 2009، ص417.

13 شريفة طيان ساحد، الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني، دار المعرفة، 2011، ص 96، 97.

14 فاتح بلعمري، الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة، رسالة دكتوراه علوم في التاريخ، كلية الآداب والحضارة قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، 2017، ص 212.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

من طرف فئة من العمال مخصصة لهذا الغرض، ورد ذكرهم في كتاب قانون الأسواق باسم الخلايين، يَستخدم هؤلاء العمال السلم للنزول إلى الحفر وتنظيفها، ويُدفع لهم مقابل ذلك مبلغ معين تحدد قيمته حسب حجم الحفرة وعمقها، فيأخذون 68 درهما للحفر الصغيرة وللكبيرة نصف ريال.كما وردت بنفس المصدر أجرة إخلاء حفرة حمام زوج ديار بنصف ريال، إضافة إلى ذلك فان القاطن في الطابق العُلوى يدفع ضعف ما يدفعه القاطن في الأسفل لأن الضرر يختلف[15] .

3. مصلحة المياه ودورها في نظافة المدينة

أولت السلطة الحاكمة اهتماما خاصا بتوفير المياه، بحيث تزودت مدينة الجزائر خلال القرن الثامن عشر بتجهيزات واسعة لشبكة المياه بتخطيط من مهندسين أندلسيين، وامتدت منها عدة سواقي إلى الخزانات بالمنازل والأماكن العامة، التي أبدع الحكام في بنائها وتجهيزيها بالمياه منها المساجد والحمامات، ومن الحمامات ما بناها حسن باشا ومحمد بن صالح رايس مجهزة بمياه باردة وساخنة[16] ومستلزمات أخرى كالمحابس(وهي أوعية أسطوانية مختلفة الأحجام تملأ بالماء للاستحمام)[17]. تبعا لأهمية النظافة عند سكان مدينة الحزائر فقد جعلوا عيون جداريه في جوف الجدران، لتصل إلى الطوابق العلوية للقصور،[18]وأنشئوا كذلك حنفيات في الشوارع مزينة بالمرمر تجري بها المياه ليلا ونهارا، كما بنيت خزانات وصهاريج حتى في بيوت الأسرى[19].

وصل حرص حكام الجزائر واهتمامهم بهذه الشبكة المائية إلى تكليف إدارة خاصة لتسيير المياه والعيون بالمدينة، يمكن تسميتها بمصلحة المياه، يشرف على إدارتها أمين العيون، مهمتها البحث عن مصادر المياه وإنشاء الشبكات وتنظيمها ومراقبة العيون وتنظيفها لحفظها من التسممات التي قد تتعرض لها طبيعيا أو من طرف الأعداء. ونظرا لأهمية المياه ودورها الرئيسي في نظافة المدينة والنظافة بشكل عام، توجب علينا التعريف بمصادر المياه في مدينة الجزائر التي كانت تزود السكان بماء الشرب

15 عبد الله بن محمد الشويهد، قانون أسواق مدينة الجزائر (1107هـ- 1117هـ/ 1695م- 1705م)، تحقيق وتقديم وتعليق، ناصر الدين سعيدوني، بيروت، دار الغرب الإسلامي ، 2006. ص 44، 45، 65

16 وليام سبنسر، المرجع السابق، ص 55، 56.

17 أيت سعيد نبيلة، المرجع السابق، ص417.

18 محمد الطيب عقاب، «التراث المعماري الإسلامي لمدينة الجزائر»، محلة حوليات المتحف الوطني للآثار القديمة، العدد8، الجزائر، 1420هـ/1999م، ص 74. انظر أيضا:

- وليام سبنسر، المرجع السابق، ص 56، 55.

19 Fray Diego De Haedo, de la captivité à Alger, tr, de Moliner - Violle, imprimeur libraire éditeur, Alger, 1911, p10.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

أو مياه الغسيل، ويمكن الإشارة إلى ثلاث مصادر رئيسية تتمثل في الآبار وخزانات مياه الأمطار وعيون القناة الرئيسة العامة للمدينة.

3. 1.مصادر التزود بالمياه في مدينة الجزائر:

أ- الآبار:

تعد المصدر الرئيسي لتزويد السكان بالمياه، فحسب هايدو أن غالبية المنازل في مدينة الجزائر تحتوي على أبار[20]، ونظرا لأهمية البئر بالمنزل كان يدخل كشرط في عقد البيع، فيذكر البائع حالة البئر عند بيع منزله، فإن كان البئر جافا ينخفض سعر المنزل. وكثيرا ما كان النزاع حول وضعية البئر يصل إلى المجلس العلمي بالجامع الأعظم للفصل بين المتنازعين[21].

ب- خزانات المياه:

تسمى أيضا بالجب يتميز بقبة تغطي المساحة المضلعة وله عدة أشكال وأحجام تختلف بين الخزانات العمومية والخزان الموجود بالمنازل[22]. وكان الخزان مرافقا للبئر في المنازل فتُذكر حالته عند بيع المنزل لأنه كان يتعرض للانكسار والشقوق بمرور الوقت، وتشير غالبية المصادر إلى وجود هذه الخزانات في أكثر من 1000 منزل في مدينة الجزائر[23].

و يمكن تفسير وجود الجب (الخزان) داخل معظم المنازل واهتمام السكان به، إلى الجفاف الذي قد يتعرض له البئر أثناء فصل الصيف، فتكون هذه الخزانات كبديل له بعد أن تُملأ من مياه الأمطار التي تتجمع فوق أسطح المنازل، وتجمع بواسطة قنوات مصنوعة من الطين المشوي يضعونها داخل الجدران لتنقل مياه الأسطح إلى الخزانات، ولتفادي تلوث المياه كانوا يحرصون على نظافة أسطح منازلهم بشكل دائم .

ج- إنشاء العيون:

لجأت بعض الأسر إلى إنشاء هذه العيون لضمان توفر الماء بشكل دائم، لأن مياه الآبار معرضة للجفاف والخزانات للانكسار بمرور الوقت. وتُجلب المياه لهذه العيون من القنوات الرئيسية التي تزود العيون العمومية الموجودة بشوارع المدينة، ومن العيون المشهورة نذكر عين الأزرق، عين

20 Haedo (Diego de), Topographie et histoire générale d'Alger, tr, de l'éspagnol par Monnereau et A. Berbruger, Alger, 1870, p 39.

- F.Elie de Primaudie, le commerce et la navigation de l'Algérie — avant la conquête française, reveu algérienne et coloniale, Alger, 1860, p 321.

21 خليفة حماش، المرجع السابق، ص 486، 487.

22 علي خلاصي، المرجع السابق، ص، 89.

23 Raymond (André), Grandes villes arabes à l'poque ottoman, paris, 1985, p165.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

تيقصرايين، عين سبع عيون، وعين بئر الخادم ...الخ، وكانت بعض العائلات تتزود من مياه هذه الشبكة كزبون إذ يترتب عليها أن تحصل على تسريح من مصلحة المياه بحيث تشترط هذه المصلحة على زبائنها مقابل مادي تستفيد منه المصلحة في تسيير وإصلاح الشبكة المائية للمصلحة العامة، ويُسمح للزبون بأن يدفع مقابل مادي غير الأموال كتحبيس عقار لصالح مصلحة العيون، كما يستطيع الزبون لاحقا استرجاع عقاره عند انقطاع المياه عنه أو يتوقف هو عن استعماله للمياه العمومية[24].

وبالنسبة للعائلات التي تفتقد إلى أبار وخزانات كانت تضع جرارها من قلات في الجدار القريب من الشارع موصولة بأنابيب ويمر السقاي لملأها وتغلق الفتحة بمفتاح يكون لدى السقاي[25] وبهذه الطريقة يتم تزويد هذه البيوت بالماء.

خاتمة: نستخلص في الأخير أن:

- النظافة في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية كان لها ارتباط وثيق بمبادئ وثقافة المجتمع الجزائري المسلم، وبالتالي فان النظافة مرتبطة بحياتهم اليومية. نهيك عن حرص الحكام على فرض العقوبات الصارمة على الأُسر للتقيد بقواعد النظافة العامة تجنبا للأوبئة والأمراض .

- مدينة الجزائر كانت بها مصلحة خاصة تهتم بنظافة شوارع المدينة وإخلاء الحفر المستعملة للقاذورات بالمنازل، وطريقتهم تلك في تنظيف الشوارع مشابهة للطريقة المعمول بها اليوم في حي القصبة نظرا لضيق شوارعها، فقط يكمن الاختلاف في الوسائل المستعملة.

- إنشاء قنوات الصرف الصحي لصرف المياه المستعملة والقذرة كان وفق خطط ومعايير حسابية خاصة بجغرافية المدينة، وهذه القنوات تعود هندستها وإنشاؤها إلى مصلحة المياه. فإذا أجرينا مقارنة سنجد أن إنشاء قنوات الصرف الصحي اليوم يرجع إلى مديرية الموارد المائية. ما يعني أن مدينة الجزائر بالفعل كانت تعيش تنظيما إداريا وحضاريا منظما إلى حد ما خلال الفترة العثمانية.

- وفرة المياه في مدينة الجزائر ساعد على المحافظة على نظافة المدينة، وقد أظهرت المصادر مدى فاعلية شبكة المياه بمدينة الجزائر خلال هذه الفترة، بحيث لا يكاد يخلو منزل أو ساحة عمومية أو مسجد أو حمام من عيون أو أبار أو خزانات، بالإضافة إلى طبيعة البناء العمراني الذي يراعي احتياجات المنازل كالشمس والهواء النقي، وهو ما ساعد على نظافة منازل المدينة من الداخل والخارج.

- ما تداولته بعض الكتابات الغربية حول انعدام النظافة بمدينة الجزائر بشكل تام لا أساس له من الصحة، لأنه لا يمكن لمجتمع ما أن يعيش لعدة قرون في جو تنعدم فيه النظافة. نهيك عن أن المجتمع الجزائري مجتمع مسلم إذ يفرض عليه دينه النظافة قبل كل شئ. زيادة على ذلك وجود شبكة مائية

24 خليفة حماش، المرجع السابق، ص 488.

25 السقاي: الشخص المكلف بالمرور عبر المنازل وتزويدها بالمياه. أنظر: أيت سعيد نبيلة، المرجع السابق، ص414.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

منظمة بالمدينة، أشادت بها جل المصادر الغربية قبل العربية، فكيف تنعدم النظافة بوجود المياه. ومن المؤلفات الغربية التي عبرت عن ذلك كتاب كورين شوفاليه، الذي اعتبر فيه أن الجزائر لم تولي اهتماما بالنظافة، ونفى وجود مصلحة خاصة بنظافة مدينة الجزائر، ولعل ما نبرر به قول شوفاليه هو أن الفترة التى تحدث فيها عن الجزائر كانت الثلاثون السنة الأولى لظهور الجزائر العثمانية، وهي مدة زمنية تعد فترة تأسيسية لدولة الجزائر، فمِن البديهي أن لا تتوفر على مثل هذا التنظيم الخاص بالنظافة، فقد أشارت المصادر إلى أن بداية عمل مصلحة النظافة بمدينة الجزائر كان سنة 1597. لكن سلوك النظافة ضارب في تاريخ المجتمع الجزائري الذي عرف عدة دول إسلامية تركت بصمتها الحضارية .

- مثل هذه المواضيع الحضاربة جديرة بالدراسة من طرف الباحثين لأنها تساهم في استعادة سلوكيات ايجابية لمجتمعنا طمسها الإستدمار الفرنسي.

الملاحـــق:

الشكل رقم (1) منظر عام لميناء ومدينة الجزائر خلال العهد العثماني[26].

26 Tal Shuval, la ville d'Alger vers la vin du XVIII siècle, CNRS Editions, paris, 2002, p270.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

الشكل رقم (2) عين بمدينة الجزائر[27].

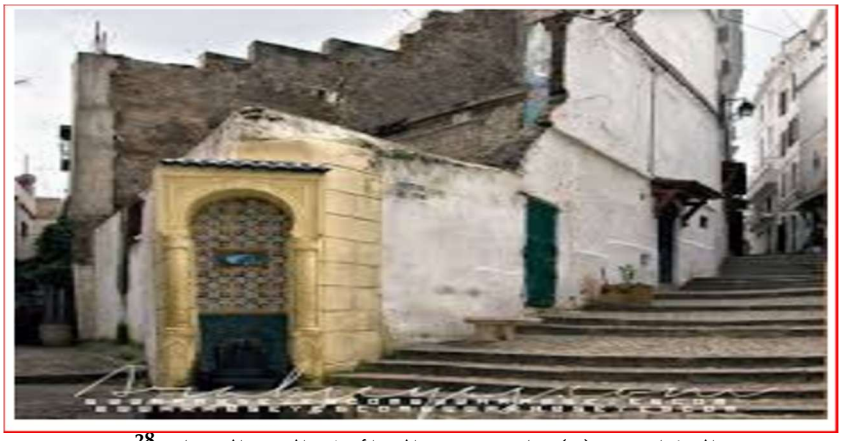

الشكل رقم (3) شارع بمدينة الجزائر في العهد العثماني[28].

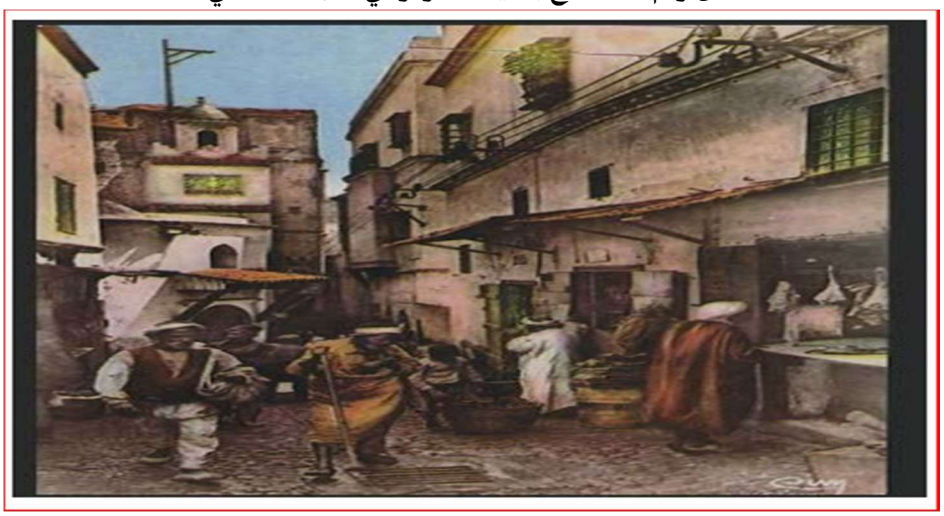

27 فاتح بلعمري، المرجع السابق، ص 382.
28 نفسه، ص 386.